

العالم العربي والأمن القومي المصري

خيري عزيز

ربما كانت مقتضيات الأمن القومي المصري والعربي، أكثر العوامل منطقية واتساقا في علاقات التعاون والمساندة والتنسيق المتبادل بين مصر والبلدان العربية المجاورة لها، خاصة إذا استقرنا التطور التاريخي لهذه العلاقة من العالم. وربما بدت هنا، وأكثر من أي مجال آخر، الأهمية الكبرى للتنسيق والتخطيط العسكري المشترك بين مصر وأقرب دول المشرق العربي المجاورة لها في مواجهة الخطر المشترك، (مثلا فعلت مصر وسوريا في تشرين الاول، اكتوبر، ١٩٧٣). فهذا هنا تجد التحديات الواقعية نفسها، تدفع بقطرين عربيين الى توحيد هجائهما الاستراتيجية، في أكثر جبهات العمل القومي خطورة على المصير، جبهة العمل العسكري. من هنا تبدو مقتضيات الأمن القومي المتبادل بوجه من الوجوه، كأكثر العوامل واقعية وفعالية في الدفع نحو الوحدة، في منطقة تأخر توحيدها كثيرا في مواجهة الخطر الذي أحرق بها، وتأخرت استجابتها كثيرا في مواجهة التحدي السافر الذي قام في وجهها. ويمكن القول انه قبل أي تفكير ايدولوجي، أو عربي وحدوي، ربما تكون غريزة البقاء الأولية أمام الخطر المشترك، هي التي تدفع العرب هنا الى الترابط والتوحد، حيث يبدو التنسيق الدفاعي كأنه ضرورة من ضرورات الحياة ذاتها.

والواقع أن قضية التنسيق، ثم التوحد مع القوى العربية الأخرى، في مواجهة الخطر المشترك ليست قضية اختيارية بالنسبة لمصر، وبالنسبة لمقتضيات أمنها، وإنما هي متطلب فرضه الموقع الجغرافي لمصر في قلب العالم العربي، حيث تطل حدودها الشرقية والغربية والجنوبية على أراضي وبلدان عربية (فلسطين المحتلة، وليبيا، والسودان).

ولقد كان الأمن القومي المصري، والعربي مرتبطين تاريخيا في الواقع ذلك أن كل المنطقة العربية وخاصة مصر والمشرق، كانت تمثل عبر العصور، ولا تزال وحدة جيوبوليتيكية واحدة. ويدل الاستقراء التاريخي بصورة

خاصة على أن منطقة شرق البحر المتوسط وجنوبه كانت دائماً منطقة استراتيجية واحدة تسمى الامبراطوريات الغازية المعادية الى الاستيلاء عليها في مجموعها ما أمكنها ذلك .
منطقة جيوبوليتيكية واحدة :

فقد اجتاحت الحثيون الشام ، لم يتركوا العراق في سلام ، ولولا مقاومة مصر العسكرية وقوتها لما ارتدوا الى الاناضول حيث جاءوا ، كذلك لم يقف قبيل الفارسي في اجتياحه عناء العراق ، بل اجتاحت مصر ، ولولا أن جيشه هلك في صحراء مصر الغربية لاستولى على ليبيا وما وراءها ، كذلك فإن الاسكندر الأكبر لم يستول على مصر وحدها ولكنه استولى على الشام والعراق وما وراءه حتى بلغ حدود الهند . والامبراطورية الرومانية لم تستعمر مصر وحدها ، بل استعمرت جنوب البحر المتوسط كله وشرقه كله . وفعلت الامبراطورية البيزنطية نفس الشيء . وفعل العرب ما فعله الروم والرومان جميعا . ولم يكتفوا بتأسيس دولة في مصر ، بل طلبوا تأمينها بتأمين الشام حتى حلب . وهكذا حين جاء الصليبيون في العصور الوسطى ليستولوا على مفااتيح الشرق لم يقفوا عند بيت المقدس كما كانت دعاواهم تقول ، بل حاولوا الاستيلاء على مصر وبقية الشام ، « رغم أن « المنصورة » لم يكن فيها قبر مقدس وانطاكيا لم تكن فيها جلجلة ولا طريق آلام » كما يقول لويس عوض ، كذلك فإن المغول والتتار لم يخربوا بغداد وحدها بل استولوا على دمشق ، ولولا قوة مصر العسكرية التي أوقفتهم في « عين جالوت » لاستولوا على المنطقة كلها والامبراطورية العثمانية لم تعف دولة في شرق البحر المتوسط أو جنوبه من الاحتلال العثماني ، والتبعية لاستانبول . وبونابرت حين غزا مصر ، غزا بعدها الشام ، وكان مخططه المعلن للحكومة الادارة أن يسد البحر الأحمر ، طريق الهند والشرق الأقصى ، على الانجليز ، ولولا توازنات القوى في المنطقة وظروف فرنسا الأوروبية لافلح فيما أفلح فيه الاسكندر ، ويوليوس قيصر ، وقسطنطين ، وآل عثمان .

وعلى هذا النحو ، فإن كافة الدلائل تجمع على أن المنطقة العربية من الخليج العربي الى المحيط الاطلسي منطقة جيوبوليتيكية واحدة بصورة عامة ، وقد اتضحت هذه الحقيقة وخاصة مع اقتراب العصور الحديثة . أمنها واحد ، ومصيرها واحد إزاء الغزو الخارجي ، وإزاء النفوذ الخارجي سواء جاء من وسط آسيا ، أو من شطآن أوروبا ، أو من معاقل الشعوب السلافية . ومن هنا تبدو محاولة اقتطاع مصر ، القطر المتوسط تماما في هذه المنطقة والذي يمثل حلقة الوصل بين مشرق العالم العربي ومغربه ، والادعاء بوجود تطوره بمعزل عن العالم العربي ، بل وفي تباعد معه وتصور ذلك كطريق لتحقيق مصلحة مصر الخاصة ، إنما هو أمر يتعارض والحقائق التي تفرضها الطبيعة ذاتها ، ويتعارض مع أبسط الحقائق الجيوبوليتيكية بغض النظر عن ارادة المرء .

وربما يكون لبنان ، وما آله إليه مؤخرا من تمزق وحروب أهلية ، أبلغ دليل على ذلك الترابط الجيوبوليتيكي بين دول المنطقة العربية ، فلقد ترددت في لبنان بالذات أكثر الدعاوى شيوعا وتطرفا عن عدم انتمائه الى العالم العربي ، وعن أصله الفينيقي .. الخ ولكن الحقائق الجيوبوليتيكية فرضت نفسها فرضا عليه ، فإذا بمعقل الدعوة الى « الانعزال » والابتعاد عن العالم العربي ، يصبح لفترة بؤرة أعنف صراع وحرب أهلية عرفتها المنطقة ، عبر سيول الدم

المسفوك في سهوله وجباله ومدنه وقراه. ولقد أفاق لبنان وربما لم يفق تماماً بعد، وهو يقطر دما، على تلك الحقيقة باللغة الجوهريّة وهي أن أمنه بل وكيانه ذاته جزء لا يتجزأ من أمن المنطقة وكيانها والواقع أن أحد أهداف الدعوة المثارة الى «حياد مصر» هو عزلها بصفة خاصة عن المشرق العربي، وعن الدول العربية التي تفرض مصالح مصر الأمنية الاستراتيجية بصورة أكثر إلحاحاً، أن تكون روابط مصر معها أقوى وأمتن من أي مكان آخر. والحقيقة أنه إذا كان من الضروري، من وجهة نظر مصالح مصر الأمنية الاستراتيجية، أن تكون روابطها مع البلدان العربية المجاورة لها، سواء في الشرق أو الغرب أو الجنوب، قوية ومتينة، فلقد أكد لنا الاستقراء التاريخي. أهمية علاقاتها بالدول العربية الواقعة الى الشرق من حدودها بصفة خاصة، وأكد أن الحدود الشرقية لمصر اتسمت تاريخياً بأهميتها الاستثنائية، لأنه إذا كانت مصر قد تعرضت تاريخياً للغزو من كل جهات حدودها، إلا أن الاخطار التي تعرضت لها من الغرب والجنوب بصفة خاصة كانت قليلة وثنائية جداً. وعلى نفس المستوى أيضاً، كانت الأخطار التي تعرضت لها من الشرق. فمن ناحية الحدود الشرقية، التي تشمل الصحراء الشرقية بمحاذاة الأحمر والتي يزيد طولها عن ألف كيلومتر، لا يكاد التاريخ يسجل حملة حربية دخلت مصر، أو خرجت منها، عبر هذا الحاجز، إلا «تجريدة» تعزيزات بريطانيا من الهند أثناء حملة نابليون. فحدود مصر الشرقية -فيما عدا البرزخ الضيق الواقع في شهاها بين البحرين الأبيض والأحمر عبر شبه جزيرة سيناء - تتوفر لها حاية طبيعية ثلاثية، تعطي لوادي النيل ميزة العمق الاستراتيجي من هذا الجانب، وتمثل هذه الحماية في البحر الأحمر بساحله الصخري المرجاني الخطر غير المضيايف، ثم السلسلة الجبلية المعقدة المضرسة والجرداء، يدعمها في النهاية نطاق الصحراء القاحلة. ومن ناحية أخرى، نجد الصحراء الغربية، من القلة النادرة من عوازل العالم الطبيعية التي - باستثناء ساحلها الشمالي - لم تخترق قط عسكر يا حتى الآن. وهي ضعف الصحراء الشرقية عرضاً وإن كانت أقل ارتفاعاً وتضرساً، غير أن الأهم فيها هو بحر الرمال العظيم، الذي يغطي بكثبانته وغروده الزئبقية الجزء الرئيسي منها كواحد من أقوى الموانع الطبيعية لكل أنواع الحروب ابتداء من المشاة حتى المدرعات، ويجعل منها واحدة من أكثر صحارى العالم وحشة وقسوة. وبالإضافة الى ذلك أيضاً، كانت حدود مصر الغربية والجنوبية تتأخم، بصورة عامة، بلاداً فقيرة الموارد محدودة الاعداد والقوة والخطر.

مصر والشام .. وحدة استراتيجية واحدة

وإذا كان البعض - نظراً للغزوات المتكررة التي دخلت مصر من شمال سيناء - قد ذكر أن الخطر على مصر يأتي في معظم الأحيان من الشرق، فانه يمكن قبول ذلك من قبيل التجاوز في الحقيقة، لأن الخطر، في كل هذه الاحوال، كان يأتي بصورة محددة من الشمال الشرقي. فمن الشمال والشمال الشرقي تعرضت مصر لأغلب الغزوات سواء براً أو بحراً، ليس فقط لأن الحدود الشمالية مفتوحة للبحر بلا عمق أو عازل هام، ولكن أيضاً لأن مركز القوى والامبراطوريات والاطلاع التقليدية في العالم القديم والحديث كان إلى الشمال. ومن الشمال أتى

الخطر البحري في موجات متعددة، وكثيرا ما اتخذ من جزر البحر المتوسط الشرقي خشبة قفز منها إلى مصر. وإذا كانت قبرص بالذات تشبه شكلا وموضوعاً مسدسا مصوباً نحو الشام، فانه كثيرا ما استدار ليوجه الى مصر كما حدث في الحروب الصليبية، وفي الاحتلال البريطاني. وفي كل هذه الحالات كانت قبرص أول نقطة وثوب، وآخر قاعدة انسحاب سواء بالنسبة للشام او لمصر، بينما كانت كريت عتبة أخرى، وقصوى إلى مصر. ولكن إذا كان خطر الشمال البحري قد داهم مصر رأسا ومباشرة في الأعم الأغلب، فما أكثر ما استدار إليها كذلك بطريق غير مباشر عبر الشام كما حدث في الحروب الصليبية، والحروب الاسرائيلية. وكان الشام كذلك هو الطريق الختامي الى مصر الذي سلكته ضغوط الهجمات الآسيوية. ومن هنا يبرز الشام - تاريخياً - كمقدمة تلقي فيها كل أنواع الضغوط الموجهة إلى مصر. وبذلك تحدد مصدر الخطر الأكبر على مصر من الاتجاه الشمالي الشرقي عامة، حيث تحتشد النواة الصلبة لهذا الخطر في الشام على وجه التخصيص والشام قد لا يكون في حد ذاته مقر الخطر - ولم يكن قط - ولكنه ممر محوري للخطر. انه، استراتيجيا، جسر معلق إلى مصر بالدقة، ورأس جسر إلى قلبها الأخضر عموما.

ولهذا نجد بلا استثناء أن كل خطر خارجي يهدد الشام، يهدد مصر تلقائيا وعلى الفور، بل نكاد نقول أن مصير مصر مرتبط عضويا، تاريخيا وجغرافيا، بمصير الشام عموما وبالأخص منه فلسطين التي شبهها كيلنج «بتوكة على حزام العالم» والتي يصفها د ه - كول بأنها «متوسطة في أكثر أقاليم العالم القديم توسطا». ومن هنا فان الذي يسيطر على الشام، يهدد مصر استراتيجيا، بمثل ما يهددها هيدرولوجيا من يسيطر على السودان.

معرك مصر الفاصلة ... في الشام

ولذلك فليس من قبيل الصدفة قط أن معظم معارك مصر الحربية الفاصلة سواء منها المنتصر أو المهزم، إنما دارت على أرض الشام، وفي ربوعه حسمت وحسم معها مصير مصر. يصدق هذا على معارك: شاروهن الهكسوس، وقادش تحتمس، إلى قورليش البابليين، وحتطين صلاح الدين، وعين جالوت قطز، حتى مرج دابق الغوري، وحمص ونصيبين محمد علي. ومن الملفت للنظر بهذا الصدد أن هذه المواقع جميعا تقع في دائرتين أساسيتين: أقصى شمال الشام على تخوم آسيا الصغرى، وجنوبه الفلسطيني في دائرة الاردن. ولقد شهدت منطقة الأغوار الفلسطينية بالذات، وعلى امتداد التاريخ العربي، عدة انتصارات عربية حاسمة اعتبرت في وقتها - وما زالت - نقاط تحول في خط النضال العربي القديم - انتصار خالد بن الوليد عام ٦٣٤م على الروم في اليرموك، وهزيمة الصليبيين عام ١١٨٧ على يد صلاح الدين الايوبي في حطين، وانتصار قطز على المغول عام ١٣٦٠ في عين جالوت. كما نجد في النضال العربي المعاصر ضد اسرائيل أن منطقة الاغوار أيضا شهدت عام ١٩٦٨ نصرا عربيا له مغزاه بعد هزيمة الجيوش العربية في حزيران، يونيو، ١٩٦٧، حققه الثوار الفلسطينيون في معركة الكرامة التي جابهت فيها عدة مئات من الفلسطينيين عدة آلاف من الاسرائيليين (١٢٠٠٠) جندي

إسرائيلي واعتبرها بعضهم تطبيقاً سليماً لتكتيكات الحرب الشعبية في مواجهة تكتيكات الحرب المخاطفة التي يعتنقها الإسرائيليون. والحقيقة أن مصر أدركت منذ خيتا والخثيين على الأقل أن الشام هو خط دفاعها الطبيعي الأول. بل وأدركت مغزى طوروس بالذات لأنها قبل أن يؤكد ذلك جنرالات الاستعمار البريطاني بالآلاف السنين. إلى هذا المدى إذن ترتبط مصر بالشام استراتيجياً والواقع أيضاً أن ساحل مصر الشمالي - وساحل الشام - اللذين بكونان صناعي زاوية شبه قائمة في شرق البحر المتوسط يمثلان معا وحدة استراتيجية واحدة. وعلى الرغم من أنهما وحدتان مورفولوجيتان مختلفتان. الأولى نهرية والثانية جبلية. إلا أن القطاع من الاسكندرية حتى الاسكندرية هو أساساً قطاع استراتيجي واحد. من وضع قدمه على أي طرف أو نقطة فيه. وصل إلى الآخر تلقائياً أو آلياً. وليست فلسطين وسيناء في هذا سوى النقطة المخرجة ورأس الزاوية.

المشرق ... حزام وقائي للأمن المصري

والواقع أنه قد لا يوجد مثل العامل الأمني. أو العسكري الاستراتيجي. عامل آخر. يربط بمثل هذا لتوثيق العلاقة المتبادلة بين مصر وبقية العالم العربي المحيط بها. وإذا كانت الغزوات قد جاءت إلى مصر عبر هذا العالم وتلك المنطقة. فإن التوسع المصري الذي يخلو لبعض الجغرافيين أن يطلقوا عليه «الامبراطورية الدفاعية» أو «الوقائية» قد جرى هو الآخر في أرجاء هذا العالم وتلك المنطقة. فعندما تعين على مصر أن تبذل ضغوطاً مضادة لتضمن أمنها وتفرض سلامها «السلام المصري». وكونت الامبراطورية في العصور القديمة. ودولة الوحدة في العصور الإسلامية والتي كانت كلها بمثابة نضال الأمان للبلاد. نجد أنها تحركت أساساً في حلقتين. حلقة داخلية وأخرى خارجية. وشملت الحلقة الداخلية الشام عموماً وفلسطين خصوصاً. وغرب الجزيرة العربية في الحجاز واليمن ثم إقليم بركة في الغرب. والثوبة في الجنوب. وكانت أغلب هذه المناطق. مسارح للحروب المصرية وللضم السياسي قديماً أو ملحقات وتوابع ولاية مصر الإسلامية. ويصدق هذا بصورة أخص على الشام فقد ارتبطت مصائره بمصائر مصر طوال العصور الوسطى خاصة. حتى يمكن أن نقول أن مصر والشام كانا بلداً واحداً في معظم مراحلهما. ولقد كانت الحلقة الداخلية في الواقع هي الدائرة الكهربائية الأساسية لتيارات وشحنات التفاعل العربي. وكان نبض مصر على أشده في القوس الغربي منها.

أما الحلقة الخارجية فإن كانت أشد هلامية. إلا أنها وصلت في الشمال إلى تخوم الفرات وأرمينيا وحواف الأناضول. ولكنها تمددت أحياناً إلى شمال العراق (الجزيرة) كما اختترقت قلب الأناضول مرة. وفي المشرق وصلت إلى نجد. ولكنها شملت الجزيرة العربية كلها مرة أو مرات. وفي الجنوب ارتبطت بشمال السودان أساساً. ولكنها تعدته فترة ما إلى مشارف خط الاستواء والصومال. كما تعدت بركة إلى ضارنس في الغرب بعض الأحيان. أما في البحر فقد تمددت لتشمل قبرص حيناً في عهد المماليك وكريت حيناً آخر في عهد محمد علي. على هذا النحو. نجد أن الهيكل الأساسي في امتداد النفوذ المصري الخارجي كان أساساً على محور شمالي -

جنوبي . وإن كان هذا المحور بين كل حين وآخر زوائد شرقية وأخرى غربية . وكان هذا التوسع المصري الكبير . في نظر عديد من المؤرخين ، أمبراطورية دفاعية . كانت نشاطات مصر العسكرية فيها من قبيل الحروب الوقائية بالدرجة الأولى . فلقد أدركت مصر منذ الهكسوس على الأقل ، أن حاية الحدود الطبيعية لم تعد - على مناعتها - تكفي . وإن الهجوم خير وسيلة للدفاع . وفي الشرق القديم كانت مصر تدافع عن نفسها . وعن المنطقة في آن واحد . وما يتردد في كل دروس التاريخ عن كل فرعون . بلا استثناء تقريباً ، بأنه قاد حملة إلى سوريا وغزا ليبيا وأخضع النوبة . ليس جملة تقليدية عالقة ، وإنما هو تاريخ مصر كله . لأن تلك الحملات كانت ضريبة الموقع . وثمناً للأمن المصري .

ومع الاسلام . أصبحت مصر سور العرب العظيم . وقلعة الاسلام . سور العرب البشري أو درعهم . لأنها بحجمها ومواردها ثم بعمقها الاستراتيجي الذي يتوسطها تعد بسهولة قلب العرب موقعاً وموضوعاً . أو «ميدلاند» العرب حسب التسمية المعروفة من وسط إنجلترا . و«هارتلاند» العرب أي «منطقة القلب» العربية أيضاً . ونجد من هذه الزاوية أن كثيراً من المؤرخين . على سبيل المثال . يميلون الى الاعتقاد بأن صلاح الدين الأيوبي ما كان ليفعل أكثر من السلطان عماد الدين أو السلطان نور الدين . لولا أنه اتخذ مصر قاعدة له . فمصر قاعدة عظمى ومستودع قوى كبرى . من يستقر فيها يكسب كثيراً بمجرد هذا الاستقرار .

ومن هنا يمكن القول انه إذا كان الدم المصري لم ينتشر خارج مصر كثيراً ، بمعنى الهجرة والتعمير ، وخاصة قبل العقود الأخيرة ، فلقد انتشر الى أبعد الآفاق حولها في الوطن العربي بمعنى البذل والقتال بحكم أن مسؤولية الدفاع عنه قد وقعت عليه تاريخياً . وإذا كان طين وادي النيل قد اختلط بعرق الفلاح في الداخل فكذلك اختلط رمل الصحارى العربية جميعاً بدم المصريين .

مفتاح العالم العربي

يقول الدكتور جمال حمدان : «إن مصر وإن لم تكن دائماً عاصمة العرب سياسياً . ولا الاسلام دينياً بالطبع ، فقد كانت «العاصمة» بالمفهوم الحرفي . المفهوم الحربي الاستراتيجي . ومن هنا أيضاً أصبحت مفتاح العالم العربي إن سقطت سقط . وإذا فتحت فتحت . ولذا كان الاستعمار دائماً يركز ضربته الأولى والقصوى على مصر ثم ما بعدها فيسهل أمره . وهذا ، أدركه وفشل فيه الصليبيون ، وكما تعلمه الاستعمار الحديث . فكان وقوع مصر ١٨٨٢ بداية النهاية لاستقلال العالم العربي . بينما جاء تحرر مصر الثورة بداية النهاية للاستعمار الغربي في المنطقة بل وفي العالم الثالث جميعاً .

إن موقع مصر الجغرافي في قلب العالم العربي . وقناتها الاستراتيجية . قد اتخذتا بالفعل مبرراً لتوطن الاستعمار وبقائه . وليس من الصدفة أن تكون مصر ، باستثناء عدن ، أول وحدة في المشرق العربي تخضع للاستعمار الأوروبي . كذلك فإن خطورة موقعها وأهميته الاستراتيجية في المنطقة المحيطة بها وبالنسبة للمواصلات العالمية .

أخبرت استقلال مصر وقدرتها على التحرر برغم عظم المقاومة الوطنية فيها. فالاستعمار الأوروبي الذي بدأ في مصر ١٨٨٢. تأخر في سوريا والعراق مثلاً إلى ١٩١٤، وبينما نجده يخرج من سوريا في ١٩٤٥ ومن العراق بعد ذلك بقليل، فإنه لم يغادر مصر رغم الاستقلال الاسمي منذ ١٩٢٢ أو الرسمي منذ ١٩٣٦، إلا في ١٩٥٤ أي أنه استمر في مصر أكثر من ٧٠ عاماً مقابل ٣٠ عاماً في سوريا وأكثر من ذلك قليلاً في العراق. ورغم المقاومة البطولية، فقد اتضح أنه بقدر أهمية الموقع المصري الاستراتيجية داخل العالم العربي، بقدر ما كانت بشراسة الاستعمار في التمسك به والاستمارة من أجله. بل ويمكن القول أن خلق الاستعمار العالمي وخاصة البريطاني لإسرائيل في فلسطين كان مرتبطاً في جزء كبير منه باستراتيجيته للسيطرة على قناة السويس وتأمينها، في حين كانت الصهيونية العالمية من جانبها تقدم نفسها للاستعمار كحامية مضمونة للقناة وككلب حراسة.

ولقد كان موقع مصر في العالم الحديث أشبه بموقع العراق في العصور الوسطى إن لم يكن حقاً هو الذي ورثه. ومن المحتمل أن عراق العصور الوسطى كان يتمتع في عصره الذهبي بموقع تجاري واستراتيجي من خير ما عرف العالم القديم. ولكنه كما رأينا دفع ثمن هذا الموقع من صميم مصيره حيث عرضه لآخطار قلب آسيا الرعوية المدمرة. وطرق القوي البرية، وقراصنة السهوب. ومنذ العصور الحديثة كانت مصر في قلب العالم العربي موقعاً من أهم مواقع العالم القديم. ولكنها بالمثل دفعت ثمنه من استقلالها حيث تكالبت عليها أخطار القوي البحرية والاستعمار الأوروبي الحديث.

والحقيقة إن الذين يريدون «تحييد» مصر، و«إبعادها» بصورة خاصة عن سوريا وفلسطين (مشكلة المشاكل في قلب العالم العربي). إنما يسعون إلى تحقيق هدف في المكان بالذات الذي لا ينبغي عليهم أن يسعوا لتحقيقه فيه. إنهم يسعون إلى عزل مصر عن المكان الأوحده الذي يستحيل من وجهة نظر أمنها الاستراتيجي أن تنزل عنه أو توقف من التطورات التي تحدث فيه موقف عدم الاكتراث. والمأساة أنه كان هؤلاء الدعاة يطالبون مثلاً بتحييد مصر وعزلها عن موريتانيا، أو المغرب أو حتى الجزائر مثلاً. فلربما كان في ذلك بعض الوجهة النسبية من وجهة نظر مصالح مصر الأمنية المباشرة. لكنهم يستهدفون «بالتحييد» و«الحياة» أن تعطي مصر ظهرها لفلسطين وقصبتها بالتحديد. ولكن هذه القضية لا يمكن الفكك منها بأي حال. لأنه لا يمكن عزل بلد عن المعابر الاستراتيجية المؤدية إليه. والتي يمثل الحفاظ عليها صهام أمنه وسلامته. وإلا كان ذلك نوعاً من الانتحار الأمني. أو اللامبالاة العسكرية القاتلة.

بوابات مصر الاستراتيجية ... عربية

فمن فلسطين بالذات. امتد الطريق أو المعبر الشمالي الشرقي للاقتراب من مصر واختراقها إلى العاصمة. وهو أخطر طريق أو معبر على الإطلاق من وجهة نظر الاستقراء التاريخي. فلقد كان هناك عامة طريقان أساسيان

للاقتراب من مصر واختراقها الى العاصمة ، طريق الساحل الشمالي عموما ، وطريق سيناء في الشمال الشرقي .. والفارق بين الطريقتين من ناحية كثافة السكان كبير . فالطريق الأول يخترق بالضرورة كتلة عظمى من كثافة السكان ، لا سيما على طول فرعي رشيد ودمياط ، الأمر الذي يعني على الفور دفاعا مزدوجا من الجيش النظامي والمقاومة الشعبية . كما وأن شبكة المجاري المائية الكثيفة جداً خاصة في الدلتا - الفروع والترع والمصارف من كل المقاييس والتي تصل الى الآلاف - هي عائق فعال أمام الزحف المعادي سواء للمشاة في الماضي أو للقوة الميكانيكية حديثا . ولهذا فلطالما تفادتها الغزوات الخارجية باللف حول الدلتا والدوران على أطرافها الرملية وصولا الى رأسها حيث العاصمة ، سواء كان ذلك من الشرق عن طريق وادي الطميلات أو صحراء الصالحية كما فعل الفرس والاسكندر ، وكما حاول الصليبيون ، أو من الغرب كما فعل القائد جوهر الصقلي .

أما طريق الشمال الشرقي فقد يصطدم بهوامش العمران في شرق الدلتا وقد يخترقها ولكنه يمكنه أيضا أن يتبع الطريق الصحراوي المباشر فيمر في شبه فراغ سكاني ، فيستطيع استهداف ومفاجأة العاصمة على خط صحراوي يتحاشى المناطق المأهولة . ومن هنا قد لا يلقى مقاومة شعبية مباشرة وتصبح المعادلة جيشا ضد جيش فقط . وهذا الطريق هو الذي يمر بفلسطين .

ويؤكد الواقع التاريخي هذا التصور الاستراتيجي . فالأشوريون عجزوا أكثر من مرة كما رأينا أمام مصر ، ولم يتصرفوا إلا حين استداروا الى الطريق الصحراوي . وإذا كان هيبز قد اخترق عمران الدلتا عن طريق تانيس وبوسطه ، فلم يكن ذلك إلا بعد أن انتصر في بيلوزيوم (الغрма) على أطراف الصحراء . ومن الناحية الأخرى فإن غارات الصليبيين على دمياط والمنصورة سحقت وسط كتلة السكان المتقدمة في براري الدلتا . بينما نجد أن غارة لهم بطريق سيناء والصحراء نجحت في تهديد مشارف القاهرة . وحملة الانجليز على رشيد ضربتها المقاومة الشعبية هناك ، ثم بعد ذلك في كفر الدوار أيام عرابي ، في حين نجح نفس العدو حين استدار عن الاسكندرية الى القناة والتل الكبير في شبه الفراغ العمراني .. كذلك نجح العثمانيون من قبل عبر الطريق الصحراوي المباشر الى ريدانية القاهرة . وقد لا نغالي اذا تتبعنا العلاقة الى الوقت الحالي . فقد فشل العدوان الثلاثي ١٩٥٦ الذي أتى بجرا الى بور سعيد ، وكان من أسباب فشله المقاومة الشعبية من كتلة السكان النامية في منطقة القناة ، بينما افلت العدوان الاسرائيلي في حزيران ، يونيو ١٩٦٧ من خطر الغرق في كثافة السكان حين قصر ميدانه على فراغ سيناء . إن المعادين لانتاء مصر الى العالم العربي ، لا يستطيعون بدعوتهم الى «تحييدها» و«ابتعادها» عن هذا العالم ، الا المغامرة بأخطر مصالحها الأمنية إذا كانت بوابات مصر الثلاث ومدخلها تنفتح على اراض وبلدان عربية . ففي الشمال بوابة سيناء ، وفي الشمال الغربي بوابة مرمريكا (مربوط) ، وفي الجنوب بوابة النوبة ، وخلف كل منها يقوم مفتاح من مفاتيح مصر . سيناء هي بوابتها الامامية ومرمريكا البوابة الجانبية والنوبة البوابة الخلفية . وفي الجنوب

تمثل جنادل أسوان البوابة الطبيعية المختنقة، وفي الغرب تخنق مرمريكا (مربوط) بين البحر ومنخفض القطارة عند هضبة الرويسات ومنطقة انعلمين لتؤلف مضيقاً كالعنق من أخطر وأمنع المداخل، حدد موقع معركة فاصلة في التاريخ المعاصر.. (العلمين). أما في الشمال الشرقي . فان الشريط الشمالي من سيناء والمدخل الشرقي هو بوابة مصر الأولى والكبرى . وحوها بدور أغلب تاريخ مصر العسكري. والملاحظ كذلك هو أن خلف كل من بوابة الغرب والشرق مفتاحاً أكثر أماناً هو الاسكندرية ثم دمياط . وكان العرب يسمون الأولى باب المغرب ، والثانية باب الشام. وقد انتقلت وظيفة دمياط هذه الى بور سعيد حالياً. وجدير بالذكر أيضاً أن هذه البوابات الصعبة حاربت أحياناً ضد الغزاة وذلك بطبيعتها الصحراوية الجافة الموحشة. فكما هلك جيش هيبز في طريق سيوة غرباً ، هلك بولدوين الصليبي عند سبخة ملحية قاحلة بشمال سيناء هي سبخة البردويل (التي أخذت البحيرة اسمها منه) .

واذا تناولنا المدخل الشمالي الشرقي . فاننا نجد أن الجزء الشمالي من سيناء الذي يحده جنوباً الخط من السويس الى رفح بالتقريب هو حلقة الوصل المباشرة بين مصر والشام. واذا كانت سيناء بصحرائها الجبلية الهضبية السهلية بمثابة جيب فارغ بشريا . وعامل فصل جغرافيا، إلا أنها تبدو عامل وصل مؤكد دون شك ، يشهد به وله سيل المسيرات الحربية جيئة وذهابا فضلا عن موجات الهجرة والتجارة طوال التاريخ. «الواقع أن سيناء التي لم يزد سكانها عن ٥٠ ألف نسمة في السنوات الاخيرة ليست اقليم استقرار، ولكنها بامتياز إقليم حركة، واذا كانت تعد بالصفة الأولى منطقة فصل . فانها تعد بالثانية منطقة وصل واتصال» ولما كان طريق الخطر الخارجي البري الى مصر هو الشام أساسا . وكانت سيناء تحتل النقطة الحرجة بين ضلعي الشام ومصر اللذين يكونان وحدة استراتيجية واحدة. فقد أصبحت سيناء بهذا المعنى «طريق الحرب» تماما. فهي معبر أرضي، وجسر استراتيجي معلق أو موطأ. عبرت عليه الجيوش منذ فجر التاريخ عشرات وربما حرفيا مئات المرات جيئة وذهابا -تحتمس الثالث وحده عبر ١٧ مرة - ولو استطعنا أن نحسب معاملا لكثافة الحركة الحربية فلعلنا لم نجد بين صحارى العرب رقعة كالشقة الساحلية من سيناء حرثتها حرثا الغزوات والحملات العسكرية. ومن هنا فان سيناء أهم وأخطر مدخل لمصر على الاطلاق. انها كخير بالنسبة للهند. أو كممر دزونجاريلا لوسط آسيا. بل انه يمكن القول بلا مبالغة أن سيناء هي أيضا مدخل قارة برمتها مثلما هي مدخل مصر. وهي عمق وانذار مبكر يمكن أن تشتري فيه مصر الزمان بالمكان. كما أنه خط الدفاع الأخير عن الدلتا ووادي النيل بعامة، اذا كانت فلسطين هي الخط الثاني . وطوروس هي الأول .

غير أن هذا العمق الاستراتيجي قد لحقه على الزمن ما لحق العالم كله من انكماش وتقلص على يد التكنولوجيا الحديثة. ومع هذا التغير طرأ تطور هام على دور سيناء الاستراتيجي . فالقوات الميكانيكية السريعة، تقطع عرض سيناء ٢٠٠ كم في ساعات . بينما يكتسحه الطيران في دقائق. ولكن سيناء اذا كانت قد فقدت بعضا من عمقها .

فان ذلك لم يفعل سوى أن زاد من أهميتها وخطورتها الحيوية. أما تغير الدور فنلمحه ارهاصات أولى في الحملة التركية أثناء الحرب العالمية الأولى حين أصبحت سيناء نفسها مسرحا للقتال الى حد ما. وكنا في الماضي لا نسمع عن معارك هامة تدور على أرضها مباشرة ولكن الاتجاه إنما يصل الى منتهاه مع عصر الطيران حيث تشير التجربة مرتين - حرب السويس وحرب يونيو، حزيران، - الى أن سيناء قد أصبحت «أرض معركة» بعد أن كانت تقليديا «طريق معركة» كما يقول الدكتور ج. حمدان. لقد تحولت من جسر حربي الى ميدان حربي، وبالتالي من عازل استراتيجي الى موصل جيد للخطر، الأمر الذي يجعل ترابط المخططات الدفاعية بين مصر والبلدان العربية المجاورة لها، أكثر إلحاحا من أي وقت مضى لدرء هذا الخطر، ويجعل قضية الترابط المصري - العربي الاستراتيجي العسكري قضية مصيرية لتحقيق متطلبات الأمن القومي المصري .

ولقد كانت القاعدة الاستراتيجية المقررة تقليديا من قبل هي : دافع عن القناة، تدافع عن مصر. إلا أن التجربة المعاصرة أثبتت مرتين في عقد واحد تقريبا أن أي خطر يهدد سيناء من الشرق يهدد القناة، بينما ان سقوطها يشل القناة. وهذا الدرس الجديد يعني أن سيناء قد أصبحت استراتيجيا جزءا من القناة وضياح سيناء معناه شل القناة، وشل القناة يعني «إيقاف» أهمية موقع مصر الجغرافي. وهكذا نجد ان القناة التي كانت عتق الامبراطورية في العصر الاستعماري قد أصبحت عتق مصر المستقلة. ولكن سيناء أيضا أصبحت رقبة أخرى لمصر من هنا يتحول المبدأ الاستراتيجي في الأمن القومي الى الشعار التالي : «دافع عن سيناء تدافع عن القناة، تدافع عن مصر جميعا». واسترشادا بهذا المبدأ وانطلاقا من ظاهرة تقلص العمق الاستراتيجي لسيناء ، يتحتم على مصر منذ الآن أن تنقل المعركة دائما الى خارج سيناء. أي أن تنتقل بعمد من الدفاع الى الهجوم كما كان المبدأ السائد في مصر القديمة والاسلامية فهو نصف النصر، ويتطلب ذلك ترتيبات مع كل بلدان المنطقة العربية المجاورة لمصر شرقا وغربا وجنوبا .

هكذا علمتنا التجربة التاريخية باليقين، ان مصير مصر مرتبط دائما بمصير فلسطين خصوصا وسوريا عموما. وأن الدفاع عن مصر والقناة إنما يبدأ في فلسطين على الأقل . وواضح تماما أن كل من سيطر من المستعمرين على أحد البلدين كان يندفع تلقائيا الى السيطرة على الآخر كما فعل الصليبيون من اتجاه و نابليون من الاتجاه الآخر، أما آخر مثل فهو الانجليز حين تقدموا من مصر الى فلسطين والاردن. يقابله المثل الاسرائيلي المعاصر . والواقع أن الاستقراء التاريخي يدلل بصورة واضحة على صحة هذه القاعدة تقريبا وهي أنه ما دامت هناك قوة أجنبية استعمارية تحتل فلسطين، فلا يمكن أن تعد مصر آمنة حقيقة وإن بدت كذلك من الناحية الظاهرية . لأن الخطر جائم مسلط عليها أبدا. وقد حدث هذا بالفعل حين انتهى الأمر في ١٩٦٧ بوقوع أراضي ثلاث من الدول العربية منها مصر في أيدي القوى الصهيونية التي سيطرت على فلسطين. وجاء الغزو الاسرائيلي الأخير للبنان في

آذار. مارس. ١٩٧٨ ليؤكد القاعدة «من يسيطر على فلسطين يهدد كل من حولها» .

شواهد من التاريخ العسكري الحديث :

واستقراء التاريخ العسكري المصري الحديث . وخاصة الاقرب إلينا من الوجة الزمنية . إنما يؤكد ذلك الترابط الوثيق بين أمن مصر القومي وبين الاوضاع في البلدان العربية المجاورة لها شرقا وغربا وجنوبا لأنه إذا تغافلنا عن إيراد تفاصيل الغزوات التي جاءت مصر من الشرق بدءاً بغزوة الهكسوس في العصر القديم . ومروراً بغزوتي الصليبيين . ثم المغول . باعتبار أن هذه الغزوات دلائل من فترات قديمة زمنية . لوجدنا في العصر الحديث وبعد افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية في ١٧ تشرين الثاني . نوفمبر . ١٨٦٩ أن القناة حولت المنطقة الى بؤرة صراع لا تحبو جذوته . إذ دارت حولها وبسببها ثماني حملات حربية خلال المائة عام الأخيرة . أغلبها جاء من الشرق (الشمال الشرقي) فلسطين . وبعضها جاء من الغرب (ليبيا) .

وكانت القناة بالنسبة للحملة الأولى التي زحفت عليها في صيف عام ١٨٨٢ وسيلة الى غاية نهائية « هي سيطرة الامبراطورية التي لم تكن تغرب عنها الشمس على شريان مواصلاتها الرئيسي الى مستعمراتها الكثيرة المنتشرة في العالم . أما الحملتان الثانية والثالثة اللتان جاءتا بعدها بثلاث قرن (شباط . فبراير . ١٩١٥) ثم (تموز . يوليو - آب . اغسطس . ١٩١٦) فكانتا وسيلة تركيا الى اعادة مصر الى أملاك السلطان الجالس في قصر يلدز . وغاية ألمانيا خنق بريطانيا بحرا . وجاءت الحملة الرابعة في صيف ١٩٤٢ التي أتى فيها الخطر هذه المرة من الغرب عندما اندفعت جحافل المحور تبغي الاستيلاء على القناة كوسيلة الى جائزة عظمى هي بتول الخليج العربي عن طريق دق اسفين طويل من الجنوب لحركة كباش . هائلة كان اسفينها الشمالي يزحف في نفس الوقت حثيثا عبر سهول أوكرانيا نحو بتول القوقاز . إلا أن لاسفينين تحطما في نفس الشهر (تشرين الثاني ، نوفمبر . ١٩٤٢) في العلمين وستالنغراد . غير أن قيام دولة اسرائيل غير الموازين السياسية والاستراتيجية وخاصة عندما نجحت مؤسساتها العسكرية في أن تمد رقعتها البرية لترتبط بين البحرين المتوسط والأحمر . عند البحر الاستراتيجي البري الذي يصل القارات الثلاث . لتنسج به استراتيجية اقليمية عدوانية تتطلع الى تمزيق جسم الوطن العربي في منتصفه وفصل مشرقه عن مغربه .

وكادت اسرائيل بالحملة الخامسة (١٩٥٦) ثم السادسة (١٩٦٧) أن تحول البحر الاحمر الذي تقع على سواحله الشرقية والغربية ست دول عربية ، الى بحيرة اسرائيلية وكانت الغاية من الحملة الخامسة أيضا تقويض صرح القومية لعربية القائم في القاهرة . وكانت الحملة السابعة خلال حرب الاستنزاف (١٩٦٧ - ١٩٧٠) والتي عمل الجانب الاسرائيلي فيها على فرض إرادته بينما رفض الجانب العربي الهزيمة . وكانت الحملة الثامنة في (تشرين الأول . اكتوبر . ١٩٧٣) عندما اقتحمت جيوش مصر القناة واحتلت خط بارليف .

وقصة الحملة الاولى معروفة لأنها قصة احتلال مصر عام ١٨٨٢ عن طريق احتلال بورسعيد والاسماعيلية والسويس وما أعقب ذلك من استيلاء الجنرال البريطاني (ولسلي) على التل الكبير ثم سقوط القاهرة يوم ١٥ أيلول ، سبتمبر، ١٨٨٢ . أما الحملة الثانية (شباط ، فبراير ، ١٩١٥ أثناء الحرب العالمية الأولى) فيتضح منها بصورة أكثر جلاء أدق حدود مصر الشرقية كمدخل شرقي الى البلاد ، فقد تجمعت القوات التركية الالمانية (٢٠ ألف مقاتل) في بئر السبع بفلسطين تمهيدا للهجوم على القناة بقيادة القائد البافاري كرس فون كرسنشتاين . وتأخر وصول المدفعية الثقيلة التركية ، فشن القائد البافاري هجومه على القناة ولكنه فشل وأعاد الهجوم مرة أخرى في ضوء النهار ولم يكن أسعد حظا ، وبدأ الاتراك الارتداد العام عند حلول الظلام . أما الحملة الثالثة (يولية ، اغسطس ١٩١٦) بقيادة نفس القائد والتي كانت تستهدف الوصول الى مشارف القناة لتسهيل ضربها بالمدافع لسدها وتعطيل الملاحة ، فقد استخدم فيها القائد الالمانى ١٦ ألف مقاتل . إلا أن الانجليز شنوا هجوما مضادا على القوات المهاجمة اضطر كرس فون كرسنشتاين الى الانسحاب حتى العريش . وفشل الهجوم التركي الثاني الذي جاء مرة أخرى من الشرق . أما الحملة الرابعة (تموز ، يوليو ، - آب ، اغسطس ، ١٩٤٢) فجاءت من الحدود الغربية لمصر حيث لم يعد آنذاك أمام رومل قائد الغزو الالمانى وبين جائزته الكبرى في الخليج العربي سوى عبور نهر النيل والاستيلاء على قناة السويس . وكانت خطة رومل عبور النهر فوق كباري الجيزة والجزيرة التي كان على قواته الخفيفة أن تستولي عليها سليمة . وأما القناة فكان على فيلق «البانزر» أن يندفع إليها من القاهرة بأقصى سرعة ليقبض على زمام الأمور في السويس والاسماعيلية . إلا أن الجيش الالمانى اندحر في العلمين وارتد مقهورا وابتعد الخطر عن القناة . أما الحملات الخامسة (تشرين الأول ، اكتوبر - تشرين الثاني ، نوفمبر ، ١٩٥٦) ، والسادسة (حزيران ، يونيو ، ١٩٦٧) التي شنتها اسرائيل في عدوانها الشهيرين فلا تزال ذكرى معاركها ماثلة في الاذهان حيث اتخذت الحملتان حدود مصر الشرقية منطلقا لهجومها من جنوب فلسطين على مصر . أما الحملة السابعة حرب الاستنزاف من تموز ، يوليو ، ١٩٦٧ الى تموز يوليو ، ١٩٧٠ فقد استخدمت حدود مصر الشرقية فيها كقاعدة الامداد والتوطين لعمليات القصف والتراشق التي وقعت بين الجيشين المصري والاسرائيلي على ضفتي قناة السويس والتي استطاعت مصر أن تدك خلالها حوالي (٨٠٪) من خط بارليف الاول وذلك حتى وقف اطلاق النار في ٨ آب ، اغسطس ، ١٩٧٠ . وربما تكون الحملة الثامنة (تشرين الأول ، اكتوبر ، ١٩٧٣) هي أبلغ دليل على مدى ارتباط الأمن القومي المصري بالامن القومي للدول العربية المجاورة لاسرائيل وخاصة سوريا . فقد خططت القيادة الاتحادية المصرية - السورية للهجوم من جبهتي الشمال والجنوب في وقت واحد حتى تفسد على اسرائيل أسلوب العمل من خطوط داخلية ضد الجبهات العربية تباعا وهو الاسلوب الذي مارسه بنجاح في جولاتها السابقة . وبفضل هذا التنسيق بالاضافة الى تحقق عنصر المفاجأة والمبادأة تمكن الجيش المصري من خلع الجيش الاسرائيلي من خط بارليف

واحتلال القوات المصرية له وذلك في أحدث مثال ودليل على مدى عمق المصالح الاستراتيجية المصرية والعربية

الأهمية الاستراتيجية للقناة ... عربيا

وثمة نقطة أخرى تحتاج الى تناول . وتخص في الواقع . العلاقة الاستراتيجية بين قناة السويس المصرية . والعالم العربي في العصر الراهن . وخاصة في فترة العقود الأخيرة

ذلك أن القناة جاءت كأكبر عامل اختزال في جغرافية النقل العالمية . وأعادت توجيه القارات ورجت القيم الجيوماتيكية في العالم بأسره . فقد أدت تلك العملية الجراحية الصغيرة نسبيا (حفر القناة) والعظيمة في آن واحد الى اختزال موقع قارة برمتها هي افريقيا . وأعادت وضع الشرق العربي ومصر في قلب لدنيا وبؤرة الخريطة . حيث نعرف في اوقيانوغرافيا العالم مائة ميل لها ما للقناة من خطر ونتائج . وأصبحت القناة شريان المواصلات العالمية وعنق الزجاجة في شبكة الملاحة الدولية ومركز الثقل في حركة العالم .

ولقد اكتسبت قناة السويس أهميتها البالغة بالنسبة لمصر والمنطقة العربية من واقع أنها أصبحت مفتاح أخطر سلسلة بحرية على سطح العمورة . سلسلة (المحيط الاطلسي - البحر المتوسط - البحر الاحمر - المحيط الهندي) . والتي هي بلا جدال السلسلة الفقيرة في عالم القوة البحرية . وأخطر بحيرة أو «بحر داخلي» في المحيط الاوقيانوسي . ولقد أصبحت بحق مفتاح «الشارع الرئيسي» في الملاحة العالمية من حيث كثافة الملاحة وأحجام الاساطيل التجارية والحربية التي تمر به . ونقطة الارتكاز بين قطاعي تلك السلسلة (المحيط الاطلسي - البحر المتوسط) من ناحية (والبحر الاحمر - المحيط الهندي) من ناحية أخرى . النقطة التي تتيح أو تمنع وحدتها واتصالها وتحولها اذا أغلقت . وبرغم ضخامتها الى «زقاقين مغلقين» .

أما بالنسبة للعالم العربي بصفة خاصة . فقد كانت قناة السويس . في عصر الازدهار الاستعماري . عصر دبلوماسية البوارج المسلحة أهم عنصر منفرد على الاطلاق في الجغرافيا السياسية . لا لمصر وحدها ولكن للعالم العربي والشرق الاوسط بأسره . وكان الخليج العربي . طوال ذلك العصر . استراتيجيا وجيوبوليتيكيا مجرد تابع أو ملحق أو قاعدة خلفية لقناة السويس . التي لم تكن بدورها مجرد بوابة أو قاعدة أمامية متقدمة . وانما بحق عاصمة المنطقة برمتها استراتيجيا وقطب الرحى في هيكلها الجيوبوليتيكي جميعا . فهل يمكن أن يكون هناك أساس منطقي لدعوة تقول بعدم وجود أي ترابط بين أمن هذه القناة . وأمن العالم العربي «البحيرة العربية» المحيطة بها ؟ والنقطة الأكثر أهمية بهذا الصدد هي . أنه مع تفجر البترول في الشرق العربي خاصة والشرق الأوسط عامة . تحولت القناة من «شريان الامبراطورية» (البريطانية الى الهند) . كما كانت الى «شريان الزيت» . فكما أصبح الخليج العربي «خليج النفط» بامتياز . أصبحت قناة السويس هي «قناة البترول» بالضرورة . وبالتالي . أضحت القناة بحق عنق أوروبا الغربية التي تعيش على بترول الشرق الاوسط . ذلك أن حركة البترول في القناة كانت تمثل في

المتوسط أكثر من (٧٠٪) من مجموع الحمولة العابرة، بينما كانت هي بدورها تحتكر نقل (٧٠٪) على الأقل من بترول الشرق الاوسط المتحرك غربا. وهكذا نشأ «زواج» اقتصادي واستراتيجي وثيق بين بترول العرب وقناة العرب. إن القناة بلا جدال هي أهم ممر عالمي استراتيجي لأهم سلعة استراتيجية في العالم. لقد أصبحت قناة السويس نفسها. قناة البترول في الدوجة الأولى حتى باتت العلاقة بينهما علاقة مصير عضوية. وكما قال د. حمدان «فإننا نستطيع أن ننظر الى تدفق البترول عبر القناة كتدفق نهر حقيقي. نهر البترول، نهر صحراء العرب الوحيد، عبر منبعه ومصبه وبحراه: المنبع الاساسي هو الخليج العربي، المصب الاساسي هو أوروبا الغربية، والبحرى الاساسي هو طريق السويس». الأمر الذي يجعل الاهمية الاستراتيجية للقناة عربيا أمرا فوق مستوى الجدل. إن الوقائع المعاصرة العديدة، قد أثبتت أن اسرائيل ليست فقط العدو الأول والأساسي لمصر وللعرب وبتروهم، ولكنها أيضا العدو الأول والأخطر للقناة، والمحرك الأول وراء كل الأخطار التي أحاطت بها، والمستفيد الأول من كل ضرر أصابها وبصيها، ومن الغرب - في ضوء ذلك - أن يتصور أحد عدم وجود علاقة بين أمن هذه القناة، وأمن كل العالم العربي المحيط بها وخاصة في المشرق. ومن هنا فإن احتياجات الدفاع عن قناة السويس إنما تتطلب في الحقيقة، تخطيط استراتيجية أكبر من أن تكون مجرد استراتيجية محلية، وإنما ينبغي بالضرورة أن تكون استراتيجية اقليمية مصرية - عربية في مواجهة أطاع السيطرة الدولية. ومن هنا أيضا يمكن أن تصبح القناة عامل وحدة ومصدرا من مصادر اعلاء القيمة الاستراتيجية العامة للمنطقة العربي.

فصل المشرق عن المغرب .. أدعى الى ترابط أكبر

إن الذين يريدون «عزل» مصر عن العالم العربي، إنما يريدون عمليا - حتى ولو لم يكن ذلك من أهدافهم - حرمان قوة كبرى من ممارسة فعاليتها السياسية والاستراتيجية العسكرية، التي تحقق بها وجودها وكيانها. وترسم بها معالم دورها في منطقة في العالم حيوية بالنسبة لغدها ومستقبلها. فكل من الحركة الصليبية: والحركة الصهيونية (التي يسميها البعض الصليبية الجديدة) على سبيل المثال، اعتبر مصر العقبة الرئيسية في مشروعه ووجه إليها كل ثقله الحربي وعددا من حملاته العسكرية. ولقد تخطمت الحركة الصليبية في الحقيقة على صخرة القوة المصرية بوجه خاص. فصر الايوبية والملوكية هي التي أجهضت الحركة الصليبية وقامت بتصفيتها.

إلا أن الحركة الصليبية لم تصل في أقصى توسعها - وتلك حقيقة تاريخية - إلى فصل مصر عن المشرق العربي، فقد ظلت سيناء والنقب دائما خارج الاحتلال الصليبي، وكانت دائرة الاتصال مكتملة بين مصر والمشرق كجبهة حربية واحدة. ولهذا أمكن لمصر أن تصل مرات إلى قلب فلسطين، وكان هذا عاملا هاما في النصر، وكل معاركها التحريرية إنما تمت على أرض فلسطين نفسها أما بالنسبة لاسرائيل، فقد كان ضياع النقب فاصلا قطع الدائرة وعزل مصر أرضيا عن الشام ومزق الواجهة العربية إلى جبهتين فضلا عن أن المواجهة الحربية مع العدو الاسرائيلي دارت على أرض سيناء وخارج رقعته إن الفرق بين الحروب الصليبية والحروب مع اسرائيل، أن سيناء في الأولى كانت طريق المعركة، ولكنها في الثانية كانت

أرض معركة. ومن هنا فإن فصل مشرق العالم العربي جغرافيا عن مغربه بعد قيام اسرائيل، إنما يتطلب بين الاطراف العربية، وخاصة على طرفي المنطقة الفاصلة. تنسيقا معوضا. وتكاملا أكبر في الخطط الدفاعية. لمجابهة هذا العامل المستجد غير المؤاني. لا تباعداً وانعزالاً. حسباً يدعو البعض .

والآن فقد زادت الأخطار. ولم يعد طريق الغزو الشرقي عبر سيناء كما كان قديما فراغا عمرانيا. فقناة السويس قد خلقت حولها نواة عمران مدني يبلغ الآن أكثر من المليون يتحولون تلقائيا إلى رهينة تحت رحمة العدو إذا وقعت سيناء أسيرة له، وإلى تحتم تهجيرها سكانا ومصانع الى عمق الوادي كما حدث بالفعل بعد حرب ١٩٦٧. والأخطر من هذا بكتير اغلاق القناة وشل الملاحة. فقد كما كان طريق التجارة هو الطريق البري وكان تهديد سيناء على يد الصليبيين يعني فقط تأرجح الطريق نحو عمق الجنوب بعيدا عن الخطر المباشر، وذلك من سلسلة السويس - القاهرة - الاسكندرية الى سلسلة القصير - الصعيد - الاسكندرية، والطريق البديل أطول، لكن الحركة لا تتوقف. أما الآن . فاحتلال سيناء يوقف الملاحة وبذا يوقف أهمية موقع مصر الجغرافي ويضيع موارده الحيوية. والواقع أن سقوط سيناء قد لا يعني. ولا يمكن قط أن يعني، سقوط مصر، ولكنه يعني بالتأكيد. وكما حدث. شل القناة، وهذا يعني شل أهمية موقع مزمنا. واضعاف القيمة الاستراتيجية للمشرق العربي ككل. وهذا الوضع الجديد بضاعف في الواقع مسؤوليات التنسيق والتضامن العربي في المجال العسكري لمجابهة الضرورات الاستراتيجية الجديدة .

ترباط مصالح الامن المصري - العربي في البحر الاحمر:

وبصورة عامة. يمكن القول أنه إذا كان هناك مفهوم للأمن القومي المصري يرتبط بمصر كواقع جغرافي وتاريخي وبشري ويمكن تتبع ممارسته عبر العصور . فإن هناك أيضاً مفهومهما عربيا للأمن يدخل في اعتباره العلاقات القائمة بين شعوب الأمة العربية. وطبيعة انتماءاتها، وتطلعاتها. وبهذا الصدد. فالملاحظ عبر كل الشواهد التاريخية حسباً ذكرنا، أن الأمن المصري والأمن العربي لا ينسج أحدهما لآخر. بل يكمله ويتممه. وإذا كان صحيحاً أن هناك «أمناً مصرياً» إلا أن هذا الأمن هو جزء من كل وهو الأمن العربي .

إن البحر الاحمر في هذا الاطار يعد أحد الابعاد الرئيسية لمفهوم الأمن المصري والعربي. بل يمكن القول من الناحية الجغرافية عامة أن هذا البحر هو «بحر عربي» .

فالساحل الشرقي كله تطل عليه بلاد عربية (الأردن، والسعودية، واليمن الشمالي، واليمن الجنوبي)، والساحل الغربي تطل عليه ثلاثة بلاد عربية (مصر والسودان والصومال). كما يقع ميناء العقبة الاردني على خليج العقبة. وتزداد أهمية البحر الاحمر إذا عرفنا أنه يمثل المنفذ البحري الوحيد لكل من السودان والأردن والصومال عبر قناة السويس . ومن هنا فإن سلام البحر الأحمر وأمنه يصبحان إحدى القضايا الأساسية للاستراتيجية المصرية العربية ويصبحان خطاً ثابتاً لها. وتذكر الوقائع التاريخية أن مصر تطلعت دائماً الى البحر الأحمر كأحد مجالات نشاطها وحركاتها. ففي العصر القديم تمثل ذلك في العلاقات التجارية بين مصر والصومال للحصول على البخور والعطور والاختشاب. وفي العصور الوسطى لعب البحر الاحمر دوره كطريق للملاحة والتجارة والمواصلات جنت مصر من ورائه الكثير .

وإذا كان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح قد قلل لفترة من أهمية البحر الأحمر فقد جاء افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ليعيد له هذه الأهمية كسمر للتجارة . وارتبط ذلك ببداية السيطرة الاستعمارية على المراكز الاستراتيجية الهامة فيه . فاستولت بريطانيا على عدن عام ١٨٣٣ وفرنسا على ميناء أبوبوك عام ١٨٦٢ وإيطاليا على عصب بعد ذلك . وتوضح سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أنها استهدفت ضمان الأمن المصري من خلال التواجد والسيطرة في البحر الأحمر . فمن الناحية العسكرية ، كان الأسطول المصري يحجب البحر فرضاً وجوده في مواجهة الأساطيل الأوروبية الطامعة فيه والمتطلعة الى ثروات بلاده . ومن الناحية السياسية بدأت مصر بأن طلبت من السلطنة العثمانية خضوع ميناءي سواكن ومصوع للإدارة المصرية عام ١٨٦٥ ، ثم أنشأت محافظة سواحل البحر الأحمر وضمت زيلع الى الإدارة المصرية ومنها خرجت حملة مصرية لفتح سلطنة هرر عام ١٨٧٥ ، ولم يأت عام ١٨٧٧ إلا وكانت مصر تسيطر على ساحل البحر الأحمر الغربي كله وعلى ساحل عدن . وعلى هذا النحو يتضح أن المحافظة على سلامة وأمن البحر الأحمر ، كما يدلنا التاريخ كانت خطاً استراتيجياً ثابتاً لمصر .

والواقع أن الاهتمام بدور البحر الأحمر في الصراع كان محدوداً حتى فترة ليست بالبعيدة ، عندما أبرزت ثلاثة أحداث الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر ، مثل قصف لنش مسلح تابع لاحدى منظمات المقاومة الفلسطينية لسفينة تجارية اسرائيلية في باب المندب حيث أسرع حاييم بارليف رئيس الأركان الاسرائيلي آنذاك بزيارة أثيوبيا . وأبرزت الصحف الاسرائيلية الخطورة التي يمثلها باب المندب بالنسبة لاسرائيل . ومن ناحية أخرى زادت أهمية البحر الأحمر بعد ما تردد عامي ١٩٧٢ - ١٩٧٣ عن قيام اسرائيل بالاستيلاء أو السيطرة على بعض الجزر التي تسيطر على مدخل جنوب البحر الأحمر وذلك بالتعاون مع اثيوبيا ، مما أثار جامعة الدول العربية وقذاك ودعا الى عقد أكثر من مؤتمر واجتماع بخصوص ذلك . والواقع أن هناك حوالي ٨٠ جزيرة في مدخل البحر الأحمر تخضع أغلبها للسيدة العربية أهمها ثلاث وهي : جزيرة بريم أو ميون ومجموعة جزر جانييس ، وجزيرة ذكور وبالذات جزيرة ميون التي تسيطر على مدخل البحر الأحمر . ومن ناحية ثالثة هناك اغلاق البحرية المصرية للملاحة أمام السفن الاسرائيلية في باب المندب في تشرين الأول ، اكتوبر ، مما حسم أهمية البعد الاستراتيجي الذي يمثل البحر الأحمر في الصراع العربي - الاسرائيلي ، والواقع أن الاهداف الاسرائيلية في البحر الأحمر متعددة منها ضمان الملاحة التجارية لايلات ، وتوسيع التجارة مع الدول الافريقية والآسيوية وبالذات شرق وجنوب افريقيا واستراليا ، وتوفير احتياجاتها من البترول الخام ، وقد يستلزم منها ذلك وضع اليد وممارسة النفوذ على بعض الجزر .

وفي مواجهة ذلك يتحدد الهدف الرئيسي لاستراتيجية الأمن القومي المصري في ضمان سلامة وأمن البحر الأحمر لحماية المصالح المصرية - العربية ، وهو هدف يعكس بالضرورة مدى ترابط المصالح الاستراتيجية والدفاعية بين مصر وكل الدول العربية المطلة على البحر الأحمر ، ويوحد مصالحها معاً في مواجهة أي أخطار مشتركة . ومن هنا يمكن القول أن البعد العربي الاستراتيجي لوضع البحر الأحمر بالنسبة للأمن القومي المصري ، انما يعكس هذا الترابط الجيوبوليتيكي البالغ الوضوح بين مصر وشقيقاتها العربيات المطلة على البحر الأحمر . وعلى وجهة النظر المعادية لتلك الروابط

الاستراتيجية بين مصر وجاراتها العربيات في جبهة البحر الاحمر أن تقدم الدليل على أن الافضل لمصالح الأمن القومي المصري. أن تكون مصر قوة وحيدة في البحر الاحمر، بمعزل عن أي تنسيق وتعاون وتكاتف مع الدول العربية المطلة على هذا «البحر العربي» .

ومن ناحية أخرى، وفيما يتعلق بوضع المضائق العربية عامة، تؤكد كافة الدلائل على أن من يتحكم في المضائق العربية، يستطيع التحكم في أمن كل دولة عربية صغرت أم كبرت، لا يختلف في ذلك باب المندب عن قناة السويس أو خليج العقبة أو الخليج العربي. وربما لا يكون هناك دليل على الالهمية الاستراتيجية العامة لمداخل البحار العربية مما فعله الاتراك العثمانيون. فلقد استولى العثمانيون في بداية القرن السادس عشر على المنطقة العربية ووحدها تحت سيطرتهم، وأغلقوا مداخل البحار العربية (البحر الاحمر، والخليج العربي)، وعزلوا كل المنطقة العربية عن تيارات النهضة والحضارة في القارة الأوروبية التي كان يزداد إشعاعها بصورة متسارعة في ذلك الحين، وبعد أن كانت المنطقة العربية على اتصال بأوروبا، حيث كانت مصر بصفة خاصة على اتصال بإيطاليا. وظلت المنطقة العربية ترسف داخل أسوار العزلة الحضارية من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر. فلما أعيد الاتصال بين مصر وأوروبا بالحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨، بدأ هذا الاتصال غير متكافي، على نحو محزن، وكانت قرون العزلة المظلمة هذه التي فرضها العثمانيون عاملاً من أهم عوامل التخلف الذي عانى منه العالم العربي في تاريخه الحديث .

نحو مفهوم موحد شامل للأمن العربي

إن مفهوم الأمن القومي . لا يعني فقط الأمن العسكري، بل يعني أيضاً الأمن الاقتصادي . أمن الرخاء، وحسن تعبئة الجماهير، وتكوين ارادة عامة فاعلة. إنه يشمل أيضاً تأمين مناطق تتسم باهميتها الاستراتيجية كفلسطين، وممرات سيناء، وقناة السويس، والجلولان، والبحر الاحمر، وعدن، وعمان الخ. وفي ظل كل هذه الاعتبارات، وفي ظل الكيانات الضخمة والصواريخ عابرة الدول والقارات، فإنه لا يجوز الحديث عن أمن محلي فحسب كبديل للأمن القومي العربي عامة . وبين مصر وأقرب دول المشرق العربي إليها خاصة .

وترداد أهمية هذا المفهوم، بل وضرورة به بين الجماهير العربية إذا تعمقنا فهم الخطر الحالي الذي يهدد الاقطار العربية. هذا الخطر يمثل في حقيقة نظرية الأمن الاسرائيلي التي تقوم أساساً على عنصر التوسع في الاراضي بهدف إبعاد قلب السرائيل عن أطرافها. والاقتراب قدر الامكان من قلوب الاقطار العربية المجاورة . ومن أسسها أيضاً حتمية التفوق الدائم غير المنقطع على كل القوى العسكرية العربية . ولعلنا نعرف كذلك أن اسرائيل تضع في حسابات أمنها، فوق ذلك قبله . مدى التشقق والخلاف بين أطراف الأمة العربية المحيطة بها تعرف أن وجودها المادي الذي فصل جغرافياً بين اطراف هذه الامة، يتدعم أمنه بأن يضاف الى الفصل الجغرافي . فصل بين المسارات العربية التكتيكية بأمل ن يتعمق فيصبح انفصالاً استراتيجياً. وهذا الواقع وحده يكفي لأن يدفعنا بشدة، الى تدعيم المسار الاستراتيجي العربي، أي خط الأمن القومي العربي ولذلك لم يخطئ الاستراتيجيون وخاصة دارسو الشرق الاوسط حين اعتبروا نظرية الأمن الاسرائيلي

نظرية شاملة. بل هي في الواقع نظرية أمن للشرق الاوسط من منظور اسرائيلي. ولذلك فلا يمكن بأي حال من الاحوال أن يقابلها على الطرف الآخر نظريات متعددة بعدد الدول العربية .
والسؤال المطروح بعد كل ذلك هو : هل يحتاج الأمر الى أدلة جديدة أكثر مما حدث بصورة واضحة للغاية في منطقة الشرق الاوسط مؤخرا ؟ أو لم يكن واضحا بصورة كافية أن نظرية الأمن الاسرائيلي قد نجحت في حزيران . يونيو . ١٩٦٧ حين واجهت أمنا عربيا غير متكامل . بينما اهتزت في تشرين الأول . اكتوبر . ١٩٧٣ حين فاجأها الأمن العربي بالكثير من مقوماته العسكرية والجماهيرية والادارية والاقتصادية . تكاد تتكامل في نظرية واحدة .
أن الأمر المؤكد بعد كل ما ذكر هنا هو أن مصالح الأمن المصري والعربي مترابطة ومتفاعلة ومتداخلة . ولا يمكن أن تكون مصر في استغناء أمني عن العالم العربي كما لا يمكن للعالم العربي ، أن يكون في استغناء أمني عن مصر . وليس هناك شك في أن دور مصر الاستراتيجي بالنسبة لكل أمن للمنطقة العربية ، محفوظ وبارق . وسيتبقى هذا الدور دائما في إطار حجمه الحقيقي . ومن هذه الناحية نقول : انه إذا كان الشعب الفلسطيني يحكم التهاب قضيته هو طليعة الشعوب العربية في الكفاح ضد مخططات اسرائيل التوسعية العدوانية . فان الشعب اللبناني والسوري هما أقرب حلفائه المباشرين . أما مصر والشعب المصري فهو القوة الرئيسية للمجابهة المصرية العربية -- الاسرائيلية . على كل مستويات هذه المجابهة .

المراجع

- ١- د. لويس عوض . «الاساطير السياسية» الاهرام ١٩٧٨ . ٤ . ٧ .
- ٢- جمال حمدان : شخصية مصر : دراسة في عقريه المكان - مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٧٠ . ص ١٩٦ .
- ٣- د. جمال حمدان : «التحدي الذي يواجه قناة السويس» الاهرام ١٩٧٥ . ٤ . ١١ .
- ٤- د. جمال حمدان : «عصر قناة السويس يطل على العالم من جديد» . الاهرام ١٩٧٥ . ٥ . ٢٣ .
- ٥- د. علي الدين هلال : «البحر الاحمر ومفهوم الامن القومي العربي» . مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية - الاهرام ١٩٧٥ . ٣ . ٢١ .
- ٦- وحدة البحوث الدولية بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية : ٦٥ تشرين الأول . اكتوبر . «الأمن القومي» - الاهرام ٨ تشرين الأول . اكتوبر . ١٩٧٥ .